

الفصل الثالث والعشرون

المباسبون

٥٨٩ — ٦٦١ هـ ؛ ١١٩٣ — ١٢٦٨ م

إغارة التتر

أولاد صلاح الدين — قيام الملك العادل — الحرب الصليبية
الرابعة — أولاد الملك العادل — نظرة عامة في العالم الإسلامي
في المشرق — الخلافة — الخليفة الظاهر — الخليفة المنتصر —
الخليفة المنصور — إغارة التتر — سقوط بغداد — تقويض
المدنية الإسلامية

توفي صلاح الدين لسوء الطالع دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ،
فنجم عن هذا الإغفال وقصر النظر ، تقويض دعائم الإمبراطورية وخرابها ؛
ومما هو جدير بالذكر أن تلك الدولة انقسمت بعد وفاته إلى ثلاثة ممالك مستقلة
على رأس كل واحدة منها ولد من أولاده ، فحكم « على الملك الأفضل »
(أبو الحسن نور الدين) الشام وفلسطين ، وباستيلائه على دمشق عاصمة
الإمبراطورية غدت له الأفضلية على أخويه ؛ كما نودي بالملك العزيز عثمان
أبي الفتح عماد الدين — الذي كان يحكم مصر في عهد والده — ملكاً على
تلك البلاد ؛ بينما ولي الملك الظاهر غازي (غياث الدين) إمارة حلب ؛ وقد
كان الملك العادل (سيف الدين أبو بكر) أمير الكرك والشوبك أخو
صلاح الدين الذي كان محبوباً من رجال الجيش ، يحكم قسماً من الجزيرة وعدة
مدن أخرى على الفرات ؛ كذلك كان أولاد شيركو قد احتفظوا بمحمص ، كما
احتفظ رؤساء آخرون من أعضاء الأسرة ببعض الإمارات ، وكان يحكم اليمن

الأخ الثاني^(١) لصالح الدين . فلو أن أولاد السلطان العظيم أجمعوا أمرهم ووحّدوا صفوفهم عقب وفاة والدهم ، لاستطاعوا برغم انقسام الإمبراطورية أن يحتفظوا بملكهم ، غير أن المنازعات وقلة الكفاءة فتت في ساعدتهم ، وأعانت الملك العادل على الاستئثار بملك أخيه دونهم ، كما أدى النزاع الذي نشب بين الأفضل والعزیز ، إلى إخراج الأول من دمشق واستيلاء عمه العادل عليها . وعلى هذا اضطر الأفضل أن يكتفى بمدينة صرخد وحدها ، ولكن العزیز لم يلبث أن توفي بعد أن أعقب طفلاً صغيراً^(٢) فاستدعى الأفضل لتولى الوصاية عليه ، ثم نشب خلاف بينه وبين العادل مما أدى إلى نفي الأفضل مع ابن أخيه المنصور من مصر ، ومنحهما بعض الإقطاعات في الجزيرة ، كما استقل العادل بملك مصر ، والشام ، وشرقي الجزيرة ، وخلاط ، وأرمينيا العظمى . وفي سنة ٦١٣ هـ ضم إليه بلاد اليمن واستعمل عليها حفيده يوسف^(٣) . وقد كان سيف الدين ملكاً بعيد النظر ، وافر العقل ، عظيم الفطنة ، حسن السيرة ، جميل الطوية حازماً . وكان كأخيه محباً للعلم ، مكرماً للعلماء ، فلم يلبث أن أصبح سيد الشام وأعلى الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع ، وعلى الجملة أصبحت دولته فسيحة الأرجاء لا تقل شأنًا عن إمبراطورية أخيه ، كما أخذت تقرأ له الخطبة على المنابر وتضرب السكة باسمه^(٤) .

الملك العادل
— ٢ —
١٢٠٠ م

— ١٢٠٧
١٢٠٨ م
— ١٢١٥
١٢١٦ م

— ١١٩٣
١٢٦٨ م

الحرب الصليبية
الرابعة

وبعد مضي سنتين على وفاة صلاح الدين أثار البابا كلاستين الثالث حملة شعواء منادياً بوجوب إرسال حملة أخرى على الشرق ، غير أن عهد حروب الأبطال كان قد انقضى بانتهاز النزاع بين صلاح الدين وريكاردوس ملك الإنكليز ، ولهذا كان الكفاح بين المسلمين والمسيحيين هذه المرة هزيعاً عديم

(١) اسمه سيف الإسلام طفتكين بن أيوب . (المغرب)

(٢) محمد الملقب « بالملك المظفر » .

(٣) الملقب بالملك المسعود .

(٤) أبو الفداء .

الفائدة ، وبالرغم من الانتقام الذى ساد معسكر المسلمين فقد برهنت إغارة الفرنج هذه المرة أيضاً على عثمها ؛ ويقول ميشو : « إن جميع دول الغرب فشلت فى محاولتها غزو حتى أصغر حصن فى الشام » . وكانت قد وصلت فى تلك الأثناء قوة كبيرة من الصليبيين إلى السواحل الفينيقية ، واستولت على يروت نكثاً بشروط المعاهدة التى كانت قد عقدت مع صلاح الدين وتمهد فيها الأمراء النصارى فى الشام بمراعاتها واحترام شروطها ؛ وكان أولاد صلاح الدين فى تلك الآونة لا يزالون على رأس حكوماتهم ، غير أن الملك العادل بصفة كونه « حامي الإسلام » أسرع إلى صد هجمات الفرنج وفتح مدينة يافا عنوة ، بينما كان الصليبيون يحاصرون « تبنين » فانتهى ذلك القتال بفشل النصارى فشلاً مريعاً بحيث اضطروهم إلى طلب الصلح ، فعقدت مهادنة مدتها ثلاث سنوات ، كما عرفت تلك الحملة بأروع ضروب الفتك والانتقام .

حصار « تبنين »

٨٥٩٤

— ١١٩٧

م ١١٩٨

م ١٢٠٠

الحملة الصليبية
الخامسة

وبعد ثلاث سنوات نهض البابا « أنوسينت الثالث » معلناً حرباً صليبية أخرى ، حاضاً الأمراء المسيحيين على الاشتراك فى تلك الحرب الهوجاء . ويقول كاتب أوروبى مشهور : « لم يكن للبابا « أنوسينت الثالث » هدف سوى جمع الأموال إشباعاً لبخله وسداً لنفقات معيشته المترفة » ، وقد رفض ريكاردوس ملك انكلترا إغارة هذا النداء أى اهتمام ، بيد أن أمراء أوروبا الآخرين لم يبلغوا حكمته وبعد نظره ، فاجتمعت قوة كبيرة منهم لغزو الشرق من جديد ، ولكنها لحسن الطالع بدلاً من أن ترحف على الشام جعلت طريقها القسطنطينية . وتتفق رواية ابن الأثير بشأن تلك الحملة مع رواية المعاصرين الأوربيين ، فيقول : « كان قد وثب على الملك أخ^(١) له فقبض عليه وملك البلد منه ، وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولده^(٢) والتحق بالصليبيين الذين اجتمعوا ليخرجوا إلى بلاد

٨٦٦١—٥٨٩

(١) واسمه إيزاك انكلوس .

(٢) الكيسوس .

الشام لاستنقاذ البيت المقدس ، فاستنصر بهم على عمه الذي اغتصب الملك من أبيه » ، ويصف لنا أيضاً بعبارة مؤثرة غزو المدينة وإحراقها والأعمال الشنيعة التي ارتكبتها حملة الصليب في المدينة فيقول : إنهم أشعلوا فيها النيران ثانية حتى احترق ربع عمارتها^(١) . ولم يكن هذا العمل غير بدء سلسلة الأعمال الوحشية التي ارتكبتها هؤلاء المتعصبون الذين اشتد هوسهم عند رؤية الجوامع وكنائس اليهود التي لا يعبد فيها غير إله واحد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فاتخذوا هذه المرة خطة جديدة لمهاجمة الكافرين ، وأعملوا السيف في رقاب السكان وأحرقوهم بالنار ، ولكن هؤلاء الكفار على زعمهم وزعم بعض جيранهم المسيحيين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن أنفسهم وأملاكهم ، فصب المتهوسون جام غضبهم على الأبنية الأثرية فراحت طعنة للنيران ، وكانت الحرائق في خلال ثمانية الأيام يرتفع لهيها ، فتشاهد على مسافة عدة فراسخ من الميناء ، وقد عقدت ضباباً كثيفاً على المدينة المنكودة الآهلة بالسكان^(٢)

ولما استولى الصليبيون عنوة على المدينة أعملوا السيف في رقاب جميع الروم ؛ ويقول المؤرخ فيلوهارد يون : « كان من المناظر المروعة مشاهدة النساء والأطفال يركضون هنا وهناك ، وقد تملكهم اليأس القاتل والخوف المرعب ، ينتحبون ويتضرعون دون مجيب » . ويقول ميلز وغيبون المؤرخان المشهوران : « إن هذه الأعمال النكراء التي ارتكبتها مخلصو القدس انتقدها البابا أنوسينت الثالث نفسه انتقاداً مرّاً ، وأنهى باللائمة على هؤلاء المتوحشين » . ولكن هذه الفظائع كانت على كل حال تفوق حد الوصف ؛ ويظهر أن الصليبيين كانوا مجردين من كل شفقة أو رحمة إذ ارتكبوا في أثناء عدة أيام أروع المناظر المثيرة في داخل المدينة وخارجها . ويقول ميشو : « أصبحت القرى والكنائس خراباً يبابا

— ١١٩٣
م ١٢٦٨

(١) ابن الأثير .

(٢) إدوارد غيبون (تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية) .

لا تصلح إلا للمحراث يشق ركامها ، وأخذت الطرق تزدهم بالجموع المروعة ، وهى لا تدرى أين تسير يلاحقها الخوف ، وقد ناء كاهلها بالمتاعب والأوصاب . كذلك أنحى عليهم المؤرخ « نيسيتاس البيزنطى » — الذى كاد الصليبيون يعتدون على عفاف ابنته — باللائمة ويقول : « إنهم فاقوا الأتراك وحشية وقسوة » ، ثم يقارن فى موضع آخر بينهم وبين جنود صلاح الدين الذين يقول فيهم : « إنهم عند ما استولوا على القدس لم يعتدوا على حرمة المنازل ، ولا على المذارى ولا الراهبات ، ولم يسيئوا قط إلى المسيحيين ، ولم يعملوا فى رقابهم السيف أو يلقوهم طعمة للنيران »^(١) ، ثم يقول أيضاً : إن هؤلاء المهوسين عقب دخولهم المدينة انتزعوا الجواهر من كؤوس الهياكل المقدسة ، وطفقوا يشربون بها الخمر ، وفرشوا المناضد التى كانوا يقامرون ويأكلون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت أقدامهم التماثيل المقدسة ، ومزقوا فى كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور ، وانتزعوا حواشيه الذهبية ، وحطموا المذبح المزين بالصور الفنية ، واقتسموا قطعه الصغيرة فيما بينهم ، ونقلوا على بضالم وخبولم التحف الفضية ، والمصنوعات الذهبية التى انتزعوها من الأبواب والمنابر والهياكل ، وكان كلما ناء حيوان بحمله الثقيل طعنه صاحبه بمنجبره طعمة نجلاء حتى غدا الرصيف المقدس ملطخاً بدماء الحيوانات ؛ ومن مهازل القدر أيضاً أنهم نصبوا تماثيل الشيطان على عرش البطريرك ، وأخذت المومسات يرقصن فى الكنيسة رافعات عقيرتهن بأغنيات تثير الضحك والسخرية .

الحرب الصليبية
السادسة
— ١٢١٦ —
٢١٢١٧

وفى سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ م أخذ البابا « أنوسينت الثالث » يخطب من جديد معلناً ضرورة إرسال حملة سادسة لإتقاذ البلاد المقدسة ؛ فانتظم فى عقدها النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والمرج ، والعمى ، والمجدومون ، كما التحق بهم ملك الحجر ، ودوق النمسا ، وجميع رؤساء الإقطاعيات فى ألمانيا السفلى ، وقصدوا

الشرق وعددهم زهاء ٢٥٠ ألف ومعظمهم من الألمان ، فنزلوا أولاً في بلاد الشام وبعد أن خربوا قسماً من الموانئ ساروا بجزراً إلى مصر ، فوصلوا إلى فرع النيل الشرق وحاصروا مدينة دمياط ، فهرع الملك العادل من شمالى الشام إلى مصر ، ولكنه توفى في طريقه على مقربة^(١) من دمشق ، وكانت مدة حكمه عشرين سنة هزم فيها الفرنج في عدة مواقع ، وأحبط غزواتهم براً وبحراً . وعلى أثر وفاته قسم أولاده الإمبراطورية بينهم ، فولى محمد الملقب بالملك الكامل (أبو المعالي ناصر الدين) مصر ؛ وولى ابنه الثانى عيسى الملقب بالملك المعظم (شرف الدين) الشام ، وكانت هذه المملكة تمتد من حمص إلى العريش على الحدود المصرية ، وفي جملتها فلسطين والقدس والكرك وبعض المدن الأخرى ؛ كما ولى ابنه موسى الملقب بالملك الأشرف (مظفر الدين) إمارة حلب . وبعد حصار طالت مدته ١٨ شهراً سقطت دمياط فى أيدي الصليبيين الذين دخلوا المدينة بنفس الروح التى دخلوا بها بيت المقدس ؛ غير أن انتقامهم لم ينصب هذه المرة إلا على عدد قليل جداً من السكان ، إذ كانت دمياط قد استحالَت بعد ذلك الحصار الطويل إلى مقبرة شاسعة تضم عظام أربعة آلاف شهيد من مجموع سكانها الذين كان عددهم سبعة آلاف نسمة ، وحتى هذا المنظر المروع لم يثر الشفقة فى قلوب الصليبيين إذ ذبحوا البقية الباقية . ثم واصلوا زحفهم على القاهرة ؛ ومع أن الملك الكامل كانت قد أنهت النجدات من أخويه إلا أنه شعر أن لا قبل له بمناجزتهم ، ولهذا اقترح أن يرد إليهم جميع المدن التى كان صلاح الدين قد استولى عليها على شرط أن يتنازلوا له عن مدينة دمياط ، ولكنهم أبوا ذلك علماً منهم بأن فى استطاعتهم الاستيلاء على مصر بسهولة ؛ وكانت مياه الفيضان وقتئذ قد بدأت ترتفع فكسر المسلمون السداد ، وما هى إلا برهة حتى غمرت المياه البلاد برمتها ، ووجد الصليبيون

وفاة الملك العادل

٧ جادى ٦١٥ هـ

٢١ - ٨ -

١٢١٨ م

أولاد الملك
العادل

١١٩٣ -

١٢٦٨ م

حصار دمياط

١٠ رمضان

٦١٦ هـ

١٩ - ١١ -

١٢١٩ م

(١) جاء فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٩ : « انه توفى بالعقين ، ونقل إلى دمشق ،

ودفن بالقلمة ، ثم نقل إلى المدرسة المعروفة به . » (المغرب)

أنفسهم قد انفصلوا عن قاعدتهم الحربية ، فانقض المسلمون على القوة التي كانت تنقل إلى الصليبيين المؤونة والأرزاق ومزقوها شرمزق ، وعندئذ انتشرت المجاعة وأخذ المسلمون يواصلون الهجوم على الفرنج حتى اضطروهم إلى طلب الصلح ، فتبادل الفريقان الأسرى ، ووافق الصليبيون على إخلاء دمياط على أن يحميم المسلمون في طريقهم إلى الساحل ؛ كما نالوا أيضاً بعض الامتيازات للحجاج النصارى ، واستردوا خشبة الصليب الحقيقية « المشكوك » فيها .

هزيمة الفرنج

١٩ رجب

٥٦١٩

٨-٩

١٢٢١ م

٥٨٩-٥٦٦

وما كاد الصليبيون يغادرون البلاد حتى نشب الخلاف بين أولاد الملك العادل ، وتحالف الملك المعظم مع جلال الدين الطموح بن علاء الدين خوارزم شاه وتم الاتفاق بينهما على عزل الملك الكامل الذي أخذ يتفاوض مع فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا ، وقد كان يستعد إلى القيام بحملة صليبية أخرى لحسابه الخاص خلافاً لرغبة البابا .

ولادة الملك المعظم

تفريق الأول

وتفريق الثاني

١٢٢٧ م

٤-١١

١٢٢٩ م

وفي سنة ١٢٢٧ توفي الملك المعظم ؛ خلفه ابنه « الملك الناصر داود » على الشام ، وما انقضت مدة وجيزة حتى اتفق الملك الكامل والملك الأشرف على الاستيلاء على دمشق ، وتعويض الناصر عنها حوران والرها والرقه . وفي سنة ١٢٢٩ م (٦٢٩ هـ) وصل فردريك (ويسميه العرب بالأنبرور^(١)) إلى الشام ، وترددت الرسل بينه وبين الكامل حتى عقدت بينهما نهائياً معاهدة صلح مدتها عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، اشترط فيها أن يسلم إليه الملك العادل مدينة القدس وبيت لحم والناصرية ، وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا ، ولم يبق للمسلمين فيها غير حق تأدية المراسم الدينية والاحتفاظ بجامع عمر ؛ ولكن هذه المعاهدة لم تنل رضا المسلمين ولا موافقة المسيحيين ، إذ كانت بقدر ما هي

(١) ويسميه أبو الفداء بفردريك . ويقول : إن القاضي جمال الدين الذي أرسله السلطان بيبرس بمهمة سياسية إلى أوروبا قد أعلمه بأن الأنبرور كان يمتاز من بين ملوك الفرنج بالعلوم وميله الخاص إلى الفلسفة والمنطق والطب ، وجبه إلى معاينة المسلمين ، إذ أن الملك المذكور كان قد تلقى علومه في صقلية حيث كان معظم سكانها من المسلمين .

مشينة للأولين الذين حرمتهم ما حصل عليه صلاح الدين ، بغيضة للمسيحيين ، لأنها سمحت للمسلمين بتأدية مراسيمهم الدينية ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى عاد فردريك إلى أوروبا للدفاع عن بلاده ضد البابا .

وفاة الملك
الكامل
٢١ رجب
٦٣٥ هـ

وفي الثامن من شهر آذار سنة ١٢٣٨ توفي الملك الكامل ، فأجلس الأمراء ابنه أبا بكر على عرش أبيه ولقب بالملك العادل ، وكان شابا ضعيف الأخلاق يميل إلى اللهو والمجون ، فغلبه أخوه أيوب الملقب بالملك الصالح إذ كان أقدر منه على كبح جماح المماليك الذين كانت تتآلف منهم الطبقة الأرستقراطية في مصر . وفي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ — ١٢٤٠ م) استولى أبو ناصر داود أمير حران على القدس وهدم أسوارها ، وقد كانت آسيا الغربية في ذلك الحين تعصف بها ريح الفوضى والانحلال ما عدا البقعة الواقعة تحت نفوذ الخليفة . ولأجل أن تفهم الحوادث التي وقعت إثر ذلك وأسباب الكارثة التي حلت بالمدينة العربية نرى لزما علينا الرجوع القهقري قليلا حيث نجد المكتفى والمستنجد والمستضى قد نجحوا في استعادة سلطتهم الزمنية على العراق وجنوب الجزيرة وفارس والأهواز كما غدت سلطتهم الروحية في تلك الأثناء أقوى منها في أي زمن كان منذ وفاة الواثق .

إعادة الاستيلاء
على القدس

وفي سنة ٥٧٥ هـ توفي المستضى وخلفه ابنه أحمد أبو العباس ولقب « بالناصر لدين الله » ، وكان حاكما قديرا ، ويقول الذهبي : إن عصره الطويل الذي دام سبعا وأربعين سنة عصر رخاء وعظمة حربية ؛ فقد أسس جيشا قويا ، ويظهر أنه كان محترما مرهوبا الجانب من جميع الأمراء المجاورين ، وساد في عهده السلم وانتشر الأمن في ربوع البلاد ؛ ولما توفي ولى ابنه أبو ناصر محمد الخلافة ولقب « بالظاهر بأمر الله » ، ويقول ابن الأثير : « لما ولى الخليفة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين » ، وقد توفي بعد حكم لم يدم إلا سنة

وفاة المستضى
١١٧٩ هـ
١١٨٠ م
أحمد أبو العباس
الناصر لدين الله
٦٢٢ هـ
١٢٢٥ م

أبو ناصر محمد
الظاهر بأمر الله

أبو جعفر
النصور
المتنصر بالله
١٠-٧-
١٢٢٦ م

واحدة فيويع بالخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور ، ولقب « بالمتنصر بالله » ، وهو الذي أعاد إلى الخلافة هيبتها وخامتها القديمتين ، وكان شهما جواداً شجاعاً عادلاً ورعاً حكيماً . وتقول الرواية إنه بنى على شط دجلة من الجانب الشرقي المدرسة المستنصرية ، وجعلها بكافة اللوازم الضرورية لراحة الطلاب ، كما أسس جيشاً لجباً للدفاع عن مملكته ضد غارة التتر .

غارة التتر

لا يخفى أن أصقاع منغوليا الشاسعة ، أو البلاد المعروفة عادة بالتتر الصينية الممتدة من حدود فرغانة الشرقية إلى أمور كانت كما لا تزال إلى الآن تسكنها قبائل بربرية متوحشة تسمى بأسماء مختلفة ، ولكنها تنتسب إلى أصل واحد ، ويصفهم عبد اللطيف البغدادي الذي شهد الأعمال التي ارتكبوها في مختلف حواضر العالم المتمدن بقوله : « إن نساءهم يحاربن كما يحارب الرجال وسلاحهم الرئيسي هو القوس والشاب ، وهم لا يحرمون شيئاً إذ أنهم يأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد في حروبهم ، بل يذبجون النساء والأطفال على حد سواء ؛ وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقرب ، أو بإمساك أذنان الخيول فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير ما خوف ولا وجل » . وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي اتحدت قبائل التتر برئاسة جنكيز خان الملقب « بغضب الله » ، وكانت ولادته سنة ١١٥٥ ، واسمه الحقيقي « تنوجين » ، ولما نودي به خاقاناً أو رئيساً أعلى للقبائل سنة ١١٨٩

جنكيز خان
(غضب الله)

١١٦٣-
١٢٩٨ م

شرع في زحفه على الغرب والجنوب ، وما كادت تمضي سنة ١٢١٩ حتى احتل الصين ، وكافة بلاد التتر ؛ وكان العالم الإسلامي وقتئذ يحكمه عدة أسر مستقل بعضها عن البعض الآخر ، وكانت الإمبراطورية السلجوقية قد انقرضت في بلاد فارس ؛ أما السلطان سانجار فكان قد ثارت عليه قبيلة تركمانية تسمى « أوغوز » ، وأستعرت بين الفريقين نار حروب دامية دارت فيها الدائرة عليه حتى وقع هو وزوجه الملكة « ترکان خاتون » أسيرين في أيدي الثوار الذين

أخذوا يتوغلون منذ ذلك التاريخ في سرو ونيسابور ، ويعيشون في البلاد نهباً وسلباً ، ولكن يظهر أن الأقدار قد أبت على كثير من المدن والمزارع ليقوم بتخريبها قبائل التتر فيها بعد . ولقد بقى السلطان « سانجار » أربع سنوات أسيراً ولكنه بعد وفاة زوجه التي كانت المحرض الوحيد على بقاءه في الأسر — فر من سجنه ووصل إلى نيسابور حيث وجد عاصمة ملكه خراباً يباباً ، وإمبراطوريته قد تقوضت دعائمها فمات بعد قليل من شدة الحزن والأسى ، وولى بعده ابن أخيه طوغرل ، ولكنه قتل فاستولى على الملك من بعده أحد رجال البلاط .	السلطان سانجار	٥٥٥٢ م ١١٥٧ م
وفي حوالى سنة ١١٥٠ م قامت دولة جديدة في أفغانستان الشرقية وحات محل الدولة الغزنوية بعد أن قوضت دعائمها ، وأسقطتها من شاق غزها ؛ وذلك أن علاء الدين حسين « جيهانسوز » مؤسس الدولة الغورية الجديدة كان قد انقض على غزنة واضطر أسرة سبكتكين إلى الالتجاء إلى لاهور ، فلم يمحض عليهم سوى قليل حتى أصبحوا ملوكها الوطنيين .	علاء الدين حسين	٥٥٤٥ م ١١٥٠ م
ولما أراد « علاء الدين » إشباعاً لطموحه أن يوسع رقعة بلاده من جهة الغرب صمد له الملك « سانجار » الذى كان حينئذ فى ذروة عظمته ، وصدّه عن التوغل والزحف فى بلاده ، ولهذا اضطر إلى تحويل وجهه شطر بلاد الهند ؛ ولما توفى فى سنة ١١٥٦ م خلفه ابنه « سيف الدين » الذى توفى هو أيضاً بعد مدة قصيرة ، وبموته آل العرش إلى ابن عمه « غياث الدين » . وما كادت تبدأ سنة ٥٦٩ هـ حتى ألحقت غزنة نهائياً بالملكة الغورية ، وفى سنة ٥٧١ هـ استولى « شهاب ^(١) الدين » أخو غياث الدين وقائد جيوشه العام فى الشرق على مولتان وفى سنة ٥٨٢ هـ قتل « بحرو مالك » آخر ملوك الدولة الغزنوية بعد أن كان قد ألقى القبض عليه بحيلة حربية . وفى سنة ٥٨٩ هـ زحف غياث الدين على الهند فدارت بينه وبين جيوشها الموحدة رحى القتال فى ميدان « ناراي » على ضفاف	الدولة الغورية	١١٦٣ م ١١٧٥ م ١١٨٧ م ١١٩٣ م

(١) يعرف فى التاريخ باسم معز الدين محمد بن سام .

« نهر ساراسواتى » ففرق شملهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وبهذا النصر الفريد أصبح المسلمون أسياد الهند الحقيقيين ، غير أن النية عاجلته سنة ٥٩٩ هـ ، خلفه أخوه « شهاب الدين » الذى قتل غيلة بعد ثلاث سنوات دون أن يعقب ولداً ؛ فولى عرش الهند من بعده مملوكه « قطب الدين أيبك » ؛ بينما ولى غزنة أحد مماليكه المسمى بيلدز ، وقد خلف الأول ابنه « أبو المظفر آرام » ، غير أن حكمه لم يدم غير سنة واحدة ، إذ عزله صهره المسمى « آلتماش » (شمس الدين) الذى نادى بنفسه ملكاً على الهند ، وظل فى الحكم ٢٥ سنة ، وكان أول ملك مسلم فى تلك البلاد استلم العقد من خليفة بغداد ، وهى الوثيقة التى طالما طمع الكثير من الحكام السابقين فى الحصول عليها ؛ ثم أفضى الحكم بعد وناته إلى أولاده حتى سنة ١٢٦٥ م حيث نادت « راضية » ابنة آلتماش بنفسها ملكة على الهند عام ٦٣٤ هـ بناء على رغبة والدها ، وبتتويجها شاهد الشرقيون لأول مرة ملكة سافرة ؛ وكان مستهل حكمها محفوفاً بالمخاطر والمشاكل ، وذلك أن الأسراء والحكام أحجموا فى أول الأمر عن إظهار ولائهم للملكة الجديدة ، ولكنها استطاعت بلباقتها وحسن سياستها أن تكتسب ودهم فنعمت البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، واعترف الجميع بسلطانها من ديبال إلى لاختوتى^(١) غير أن حياتها مع ذلك انتهت بمأساة راثمة ، إذ بينما كانت تحاول قمع إحدى الفتن أسرها الهنود وفتكوا بها .

١١٩٣ -
١٢٦٨ م

وفى تلك الأثناء أقطع السلطان ملك شاه خادمه « نشناكين » إمارة خوارزم فحكمها ردحاً من الزمن ، ثم خلفه ابنه « قطب الدين محمد » الذى لقبه « سانجار » فيما بعد بلقب خوارزم شاه ؛ غير أن « أديز » بن قطب الدين ثار على سيده السلطان سانجار فى أواخر عهده واستقل بمملكته . وبعد عدة سنين ضم طاقش حفيد أديز عراق العجم إلى مملكته كما أقطعه الخليفة بعد مقتل « طوغريل »

ابن أخى ساجبار آخر الملوك السلجوقيين بلاد فارس وخوارزم وخراسان . ولما توفى « طاقش » خلفه ابنه « علاء الدين محمد » الذى أصبح باحتلاله بلخ وهراة سيد خراسان دون منازع ؛ كذلك لم يلبث أن ضم إلى مملكته مازندران وكرمان وغزنة ، ثم بلاد ما وراء النهر التى كان يحكمها حاكم بالنيابة عن رئيس قبائل كرخيتى . وفى سنة ١٢١٤ م زحف علاء الدين على عاصمة الخلافة ، غير أن عاصفة هوجاء ثارت فى جبال آسباد على مقربة من همدان فعزلت زحفه واضطرت به إلى أن يعود إلى عاصمة ملكه ؛ وما كادت تنقضى بعد ذلك أربع سنوات حتى اكتسحت البلاد قبائل مغولية ، كان هو السبب المباشر فى استفزازها لقسوته ووحشيته .

الموصل
وفى ذلك الحين كانت أسرة « زنكى » قد انقرضت فى الموصل ؛ وكان آخر أمراء « الأتابكة »^(١) قد أعقب طفلاً صغيراً يدعى « مسعود » تولى تربيته مملوك أبيه « بدر الدين لؤلؤ » . وفى سنة ١٢١٨ م توفى مسعود ، ثم مات من بعده ابنه الصغير ، فأصبح بذر الدين لؤلؤ أمير الموصل ؛ ودام حكمه سبعة وثلاثين سنة حتى إغارة المغول .

الروم
— ١٢٤٣
م ١٢٤٤
وفى سنة ١٢٣٥ — ١٢٣٧ م كان « علاء الدين قايقوباد » الحفيد السابع للسلطان سليمان متربماً على عرش قونية ، عند ما زحف المغول لأول مرة على آسيا الصغرى فنشبت بينه وبينهم عام ٦٤١ هـ معركة رائعة دارت فيها الدائرة عليه ، ولكن الصلح تم بينهما على أن يدفع المغول جزية سنوية ويستخدم رجلاً منهم فى بلاطه يدعى « بروانة » .

مصر سنة
— ١٢٤٠
م ١٢٤١
ذكرنا فيما سبق كيف نادى « الملك الصالح أيوب » بنفسه ملكاً على مصر سنة ٦٨٨ هـ ؛ وكيف أخذ يوسع رقعة مملكته تدريجياً ، حتى استولى على الشام وأجبر أمراء « آل بويه » حكامها الأصليين على الاعتراف بسيادته عليهم ؛

ولكنه بينما كان منهمكا في نشر الأمن في ربوع البلاد أغارت على الشام
فلول جيش « خوارزم شاه » التي فرت من أمام جيوش المغول ؛ وأوغلت في البلاد
تعميث فيها نهبا وسلبا ، فانتهاز أحد الأمراء إغارة هؤلاء الفلول واستخدمهم لمصلحه
الخاصة ؛ ولكن لم يمض سوى قليل حتى استخدمهم زعيم آخر لما ربه الشخصية ،
غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على جميع أمراء الشام ، وراحوا يعمثون في البلاد
فسادا ويعملون السيف في رقاب أهلها ؛ فجمع « الملك الصالح » فلول جيشه وأتحن
فيهم وظل يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم سنة ٦٤٤ .

الحرب الصليبية
الثامنة
٦٤٧ هـ
١٢٤٩ م
١٢٥٠ م

وبينما كان الملك الصالح منهمكا على هذا النحو في قمع تلك الاضطرابات
والفتن ، أغارت على البلاد الإسلامية حملة صليبية ثامنة بقيادة « الملك لويس »
التاسع ملك فرنسا الذي يسميه العرب « ريد فرانس » قتل لويس في مدينة
دمياط بعد أن هجرها سكانها المسلمون ، وحول مساجدها إلى كنائس ، وراح
الصليبيون يرتكبون أشنع الجرائم ، وطلق أمراؤهم يتبارون في إقامة الولائم الباذخة
كما استسلموا إلى أحط الرذائل وأسوأ الموبقات « فانتشر الفساد بين صفوفهم
انتشارا لم يستطع الملك لويس نفسه معالجته وتوقيف تياره الجارف » .

١١٩٣ هـ
١٢٦٨ م

ويقول ميشو : « كانت شهوة المقامرة قد تملك نفوس الجنود والقواد
على حد سواء ، حتى راحوا بعد ضياع أموالهم يقامرون على أسلحتهم وخيولهم .
وهكذا استسلم الصليبيون تحت ظلال الصليب إلى أشنع ضروب الرذائل وتقشى
الفساد في صفوف جميع الضباط والجنود » . « ولأجل أن يشبعوا شهواتهم
ويقتنصوا اللذائذ والمسررات ، التجأوا إلى ضروب العنف والاستبداد ؛ وراحوا
يبتزون أموال التجار الذين كانوا يمدون العسكرات بالأرزاق وفرضوا الضرائب
الباهظة عليهم ، مما أدى إلى فرارهم ، قتل الطعام بين الصليبيين ، وطفقت الجنود
تغير على القوافل وتهب المدن وتأسر النساء المسلمات » . ويقول جوفنيل « انحط
الصليبيون إلى أسفل الدركات إذ راحوا يفتصبون العذارى والمتزوجات » .

١٥ شعبان
٦٤٧ هـ
١١ - ٢٣
١٢٤٩ م

وخلال وجود الفرنج في دمياط توفي « الملك الصالح » أيوب^(١) بعد أن قضى في الحكم نحو عشر سنوات ؛ وكان ملكا عادلا مستقيما كبير النفس عظيم الهيبة متحفظا لم يقدم على عمل قط من غير أن يستشير قواده ورجال بلاطه ، وإليه يعزى تأسيس فرقة المماليك البحرية^(٢) . وقد خلفه ابنه الوحيد المسمى « تورانشاه » والملقب « بالملك المعظم » ، وكان مقيما عند وفاة أبيه على حدود الشام فأخفت زوجته « شجر الدر » — التي كانت على جانب عظيم من الشجاعة والدهاء — خبر وفاة زوجها حتى أقسم كبار القواد لابنها يعين الطاعة والولاء .

٥٨٩-٥٦٦

اتهنز الفرنج فرصة وفاة « الملك أيوب » وتوغلوا في البلاد المصرية ، ولكنهم منوا بشر هزيمة بعد أن قتل منهم عدد كبير ، كما وقع لويس نفسه وقواده أسرى في قبضة المسلمين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى سخط المماليك البحرية على تورانشاه لتحزبه إلى « البرجيه » وهي الفرق العسكرية المنافسة لهم فقتلوه . وبعثوا نادات « شجر الدر » بنفسها ملكة عليهم كما دعى لها على منابر المساجد ، ونقش اسمها على العملة ، ولقبت بالمستعصمية أي (خادمة الخليفة المستعصم في بغداد) والصاحلة (زوجة الصالح أيوب) (ومملكة المسلمين) و(أم الملك المنصور خليل^(٣)) . وعندئذ قلدت « شاشنكير معز الدين أيبك » قيادة الجيش العامة^(٤) ، ولكن ما هو إلا أن خلعهما واعتلى العرش عوضاً عنها ، غير أن الأمراء أبوا الموافقة على توليته ، وأجمعوا على المنادة بأمر من الأمراء ملكا عليهم ، وفي الحال انتخبوا « موسى » حفيد الملك الكامل ، وكان شابا يافعا وتلقب « بالملك الأشرف » . وفي ذلك الحين كان الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب هو في الواقع الحاكم المسيطر على

١٢٥٠ م

— ٨ —

١٢٥٠ م

٥٦٥

(١) الملقب « بنجم الدين » .

(٢) سموا كذلك لوقوف معسكراتهم على ضفاف النيل .

(٣) كان لها ابن يسمى خليل ، توفي في سن الطفولة .

(٤) أتابك العساكر .

الشام ، وبتوسط الخليفة عقدت معاهدة صلح بينه وبين « أيبك » نائب « الملك الأشرف » نص فيها على جعل حدود مصر تمتد إلى نهر الأردن . ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عاد « معز الدين أيبك » واغتصب العرش من الملك الأشرف وأعادته إلى موطنه اليمن . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الأشرف يعتبر آخر الملوك الأيوبيين الذين قرئت باسمهم الخطبة في جوامع مصر . ويقول لنا الرواة إن أيبك أخذ يعم في اضطهاد المالكات البحرية حتى أجبرهم على الالتجاء إلى الشام ، وبعدئذ نشب نزاع جديد بين « الناصر » « وأيبك » أدى إلى توسط الخليفة ثانية لعقد معاهدة صلح بينهما اكتفى فيها الناصر بأن تمتد حدود مملكته إلى العريش . ولما توفى « أيبك » خلفه ابنه « نور الدين على » ولقب « بالملك المنصور » ، وفي الحال أرسل إليه الخليفة العقدة والتشريف التقليديين . ومع أن ملك الشام كان هو المسيطر الحقيقي على البلاد الممتدة من القرات إلى تخوم مصر إلا أنه كان ثمة أمراء آخرون يحكمون بعض الإقطاعيات داخل سلطنته ، فكانت حصص يحكمها وقت إغارة المغول « الملك الأشرف » موسى حفيد « شركو » الذي عزله « الناصر » سنة ١٢٤٨ وعوضه عنها منطقة تل بامر ؛ كما أقره المغول على ملكه وأتابوه عنهم في الشام ، وكان يحكم « حماء » حفيد « تقي الدين عمر » ابن أخى صلاح الدين العظيم الذى كان قد ولاء بنفسه تلك المدينة ، واشتهر ابنه « محمد » الملقب « بالملك المنصور الأول » بشجاعته في المعارك التى دارت رحاها مع الصليبيين ، وبتكريمه العلماء ؛ وكان يجلس على عرش حماء حفيد المنصور الثانى ؛ أما الكرك والشوبك ، فكانتا في قبضة أحفاد « الملك العادل » (سيف الدين أبو بكر) أخو صلاح الدين ؛ وكان يحكمهما وقتئذ الملك المغيث تقي الدين عمر . وبجانب تلك الإمارات كان الأيوبيون لا يزالون محتفظين بقسم صغير من الجزيرة ، وكان أميرها وقتئذ « الملك الكامل » خامس ملوك تلك الأسرة الذى قتله المغول فى أثناء زحفهم المشهور .

— ١٢٥٣

م ١٢٥٤

آخر الملوك
الأيوبيين

— ١١٩٣

م ١٢٦٨

الشام

٥٦٦١-٥٨٩

حافة خوارزم
شاه

هكذا كانت حال الملوك والأمراء المسلمين عند زحف المغول ، ويقول لنا المؤرخون إنه عقدت في سنة ١٢١٨م معاهدة صلح بين جنكيزخان وخوارزم شاه توثقت بموجبها العلاقات الودية بين الملك البربري الذي كان يتحكم في رقاب عدة ملايين من القبائل الرحل المسلحين ، وبين ملك التركمان الطائش الذي ارتكب لسوء الطالع عملا يشف عن القسوة والحماقة ، فآثار على العالم الإسلامي عاصفة هوجاء حولت غربي آسيا خلال بضعة أعوام إلى مقبرة شاسعة وأرض يباب بلقع ، ويلخص الحادث ؛ أن ملك المغول كان قد أرسل جماعة من التجار لشراء بعض الأمتعة ، فلما أشرفوا على ما وراء النهر ، قتلهم نائب خوارزم شاه على مقربة من الحدود واستولى على ما معهم بحجة أنهم إنما جاءوا ليتسقطوا أخباره . ولما طلب ملك المغول تسليم النائب المجرم لينزل به ما يستحقه من عقاب أجابه خوارزم شاه بقتل رسوله تحديا له ، فثار عندئذ ثائر جنكيزخان ، وزحف بجيشه البالغ زهاء المليون على فرغانة سنة ٦١٥ هـ .

إغارة التتر
١٢١٨م

كانت بلاد فارس وما وراء النهر في تلك الآونة — بالرغم من الفتن التي كانت تنشب فيها من حين لآخر — مزدهرتين ، وكان أهلها يرفلون في حل السعادة والرفاهية ، كما كانت الحركة العلمية والصناعية والأدبية زاهرة زاهية ، وليس أدل على بلوغ هاتين المملكتين حد المدنية والرقى من مدنها العامرة ، ومزارعها النظرة ومبانيها المنيفة الندى ، كما كان يبلغ عدد سكان كل من هراة وبلخ مليون نسمة ، أما بخارى وسمرقند ، فكان عدد سكانها يفوق هذا العدد بكثير .

— ١١٩٣
١٢٦٨م

اكتسحت جيوش التتر جنود الملك خوارزم شاه كما تكتسح السيول ماتصادفه من الحصى والرمال ، وإذا أغفلنا ذكر المدن الصغيرة والقرى العديدة ، وأمعنا النظر في وصف المؤرخين لحالة المدن الكبرى التي كانت مركزاً للمدينة وسوقاً للتجارة ، لتبين لنا جلليا ما حل بهذه الأصقاع من الدمار والخراب . فقول

لنا الرواية إن هؤلاء المغيرين انقضوا على « خوجاند » انقضا صواعق ، تخريب بخارى وأعملوا فيها يد القتل والتخريب ، أما بخارى فقد استحالت ركاما وأنقاضاً ، ويصف ابن الأثير زحف التتر على هذه الحاضرة العظيمة الشأن بعبارات مؤثرة بليغة تذيب القلب حسرة وأسى .

استمر المغول في توغلهم في وادي الصفد الجليل حتى أوفوا على سمرقند التي لم تكن عاصمة بلاد ما وراء النهر لحسب بل كانت أيضاً من أهم المراكز التجارية في العالم ، وكانت تبلغ مساحتها ثلاثة أميال ، يحيط بها سور له اثنا عشر باباً من الحديد وحصون متفرقة ، كما كانت تتألف حاميتها من ١١٠ ألف جندي بينهم ٦٠ ألف من التركان والكنكليس و ٥٠ ألف من الفرس ؛ فلما أشرفت الجيوش الثلاثة التي اجتاحت بلاد ما وراء النهر على المدينة المنكودة الحظ ، بعث إليها قائد المغول سرية لارتكاب أروع الجرائم الوحشية .

ولقد ظن الجنود الأتراك لأول وهلة أن المغول سيعاملونهم معاملة المواطنين فهجروا المدينة مع عائلاتهم وأموالهم ، ولكن المغيرين انقضوا عليهم وذبحوهم على بكرة أبيهم .

وما إن علم أعيان المدينة وعلماءها بمصير الجنود الأتراك حتى عرضوا طاعتهم على جنكيز خان ، ولكنه أباح برغم ذلك نهب المدينة وقتل السكان ، وأسر ٣٠ ألفاً من أهل صنعهم وأرسلهم إلى أبنائه في الشمال ، كما جند عدداً كبيراً لاستخدامهم في الأشغال العسكرية والنقلات وما إلى تلك الأعمال ، ولم يبق إلا على ٥٠٠٠ من أهلها ليقصوا على الناس تفاصيل الفاجعة التي حلت بمدينتهم فذعر أهالي بلخ مما آلت إليه بخارى وسمرقند ، وفي الحال أذعنوا للمغيرين ؛ غير أن قائد المغول كان على ما يظهر يخشى المدن العاصرة ويتقن تركها أهلة بالسكان ، فلما اقترب من « بلخ » أخرج أهلها بحجة إحصائهم وقتلهم على بكرة أبيهم .

وفي آيار سنة ١٢٢٠ م استولى على أوركانج بعد أن نشبت بينه وبين جيشها

معركة رائعة ، فالتحن فيهم حتى أفنأهم جميعاً ، وعندئذ أمر بكسر الأسداد القائمة على نهر سيحون ، ومن ثم شخص إلى نيسا وأسر منها ٧٠ ألفاً ، وبعد أن أوثقهم بالجلال أمر بطرحهم على الأرض ورشقهم بالنبال حتى أفنأهم على بكرة أبيهم . وفي نيسان سنة ١٢٢١ م انقض على نيسابور عاصمة دولة آل طاهر السلجوقية بفارس وعاث فيها نهباً وسلباً ، كما أرسل أصحاب الحرف وعددهم ٤٠٠ إلى الشمال . ويقول ننا ميرخوند : « يبلغ عدد من قتل في مذبحة نيسابور والمناطق المجاورة ١٧٤٧٠٠٠ » .

مذبحة هراة

وفي هراة وضواحيها ظل هؤلاء المتوحشون يعملون معاول التخريب والسيف والنار أسبوعاً كاملاً . ويقال إن عدد الذين قتلوا في تلك المذبحة بلغ ١٦٠٠٠٠٠ الرى ومهدان نسمة حتى أصبحت تلك البقعة قفرة موحشة . ومن ثم زحفوا على الرى وديناروار ومهدان فنهبوا وقتلوا معظم أهلها ، ثم واصلوا الزحف على بغداد عاصمة دار الخلافة العباسية ، ولكن جيوش المستنصر بعد معركة رائعة أوقعوا بهم وصدوهم عن التوغل في البلاد .

١١٩٣ —
١٢٦٨ م

ظل التتر يعمشون في البلاد فساداً ، ويعملون فيها معاول الهدم والتخريب ، ويشخنون في أهلها ، ويطاردون ملكها الذي كان أصل تلك البلايا والنكبات وهو يتوارى عن أعينهم ؛ وفيما كانوا يجردون في البحث عنه قبضوا على جميع أفراد أسرته وقتلوا الذكور منهم ، غير أن أولاده الثلاثة استطاعوا الإفلات من قبضتهم ، كما تمكن أحدهم من مقاومتهم مدى حين . وفي تلك الأثناء كاف خوارزم شاه قد اعتصم بإحدى الجزر في بحر قزوين حيث توفي بمرض الرئة وحيداً مهجوراً ، كأنه أراد بذلك أن يكفر عن المصائب والويلات التي جلبها على العالم الإسلامي . أما ابنه الشجاع « جلال الدين » فقد تعقبه التتر من غير ما شفقة ولا رحمة ، فتراجع إلى خوارزم ثم هراة ، ومنها إلى غزنة حيث جمع حوله قوات جديدة استطاع أن ينتصر بها على المغول في معركة رائعتين ،

وفاة
خوارزم شاه

١٢٢٠ م

ويلحق بهم أفدح الخسائر ، وعندئذ أخذ « جنكيزخان » يلاحقه بنفسه بحمية شديدة فعبر « الباميان » و « كابول » وجد في السير حتى أتى على الموقع الذي اعتصم فيه الأمير على الضفة الغربية من نهر مهران ، فهجم عليه هجوما عنيفا ، ولكن جلال الدين صمد له بشجاعته المهددة ، وكاد يجليه عن موقعه لولا أن حاصره في إحدى الشعاب ، وعندئذ قفز بفرسه من علو ٣٠ قدما إلى النهر ، وتمكن من العبور سالما إلى الضفة الأخرى حيث أمن جانبه ، وقد حالت جنود سلطان الهند المدعو « بلبان » دون عبور « جنكيزخان » الذي سحب جنوده بعد هذه الهزيمة وسار بها غربا ، وهكذا احت معالم المدينة التي زهت عدة عصور في بلاد ما وراء النهر وخراسان على أيدي هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتقوضت عظمتها ، وقفرت الطرق من القوافل التي كانت تخترقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربي آسيا وأوربا ، واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى بلقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التي طبقت شهرتها الآفاق ، وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقى منهم قسراً في الجيش المغولي ، وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشتغلوا في تجميل مسقط رأس الغازي ؛ وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية في آسيا الوسطى ، ومع أن فارس والمغرب استردا تدريجيا ازدهارهما العلمي إلا أن بخارى وسمرقند لم تنتعش حياتهما العلمية قط ، وظلت الدراسة العلمية فيها مقتصرة على التصوف والفقه . ويقول لنا المؤرخون إن جنكيزخان بعد أن قوض معالم المدنية في أواسط آسيا وفارس وحوّلها إلى صحراء قاحلة عاد إلى وطنه حيث توفي بعد قليل ، وعندئذ تمكن جلال الدين من استرداد قسم من بلاده ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف المغول عليه ثانية قبل أن يتمكن من حشد قواته وينظمها ، فاضطر إلى الاعتصام بجبال كردستان التي اغتاله فيها أحد سكانها .

وفي سنة ١٢٤٢ م توفي الخليفة المستنصر في أخرج مواقف الدولة العباسية خصوصاً والمدنية العربية عموماً ، وخلفه ابنه أبو أحمد عبد الله الملقب « بالمستعصم بالله » ، وكان ضعيف الرأي ، شديد البطش ، مغرماً باللهو ، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات في الداخل والخارج حتى تجمعت عليه الإحسان والمصائب ، وقوضت دعائم ملكه وسببت هلاكه .

وفاة الخليفة
المستنصر
١٠ جادى الثانية
٥٦٤٠ هـ
— ١٢ —
٢١٢٤٢ م
المستعصم بالله

وهكذا تجمعت عليه شتى النكبات التى جعلته يتبرم من الحياة وينوء كاهله بعينها ومن جعلتها النزاع بين الحنفية والحنابلة ، وهما فئتان كانتا دائماً مصدر آلا تارة الفتن والاضطرابات فى بغداد ، ولا ننسى أيضاً الخلاف الذى طالما نشب بين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون الجهة الغربية من بغداد ، هذا علاوة على التحاسد والتباغض بين السوق والدعاه من جهة وبين الطبقة الفنية والأرستقراطية من الجهة الأخرى ، وقد زاد فى تخرج الموقف تلك السياسة الخرقاء التى سلكها الخليفة فى تسريح جنوده لمزاولة أعمال التجارة والزراعة . وتقول لنا الرواية إنه كانت قد نشبت فى عهده فتنة بين السنة والشيعة ، فأمر الخليفة ابنه أبا بكر وكاتبه بهدم الكرخ واضطهاد أهله ، فاستاء وزيره مؤيد الدين محمد ابن العلقمى الذى كان من رجال الشيعة ، ويقال إنه أراد أن يثار للاضطهاد الذى كان يلقاه أهل مذهبه فكاتب هولاء كوا يحرضه على الشخوص إلى بغداد ، وقد اتهمه مؤرخو العرب أمثال ابن خلدون وأبى الفداء والمقرئزى والسيوطى بخيانة وطنه وخليفته ، كما أيدم فى هذا الاتهام « مرخونت » أحد كتاب ملوك المغول ؛ أما « رشيد الدين » وحده فباعد عنه التهمة ويصفه بأنه كان خادماً أميناً للخليفة ميالاً إلى إنقاذ الدولة من الدمار الحديق بها ، ولكنه كان عاجزاً عن بلوغ وطوره إزاء تصرفات الخليفة المتردد .

زحف هولاء كوا
على بغداد
ربيع الأول
٥٥٥ هـ

ومهما يكن من شىء فإن هولاء كوا — أخوا جنكيزخان ونائبه فى منكوخان من أعمال فارس — بعد أن استأصل شأفة الباطنيين وهدم قلاعهم زحف على

تبريز ومن ثم أرسل وفداً إلى المستعصم يحمل إليه رسالة يقول فيها : « إنه كان قد تلقى منه كتاباً خلال حروبه مع «الردبار» يعده فيه بالمدد والأقوات ، ولكنه لم يبر بوعده للآن » ثم ختم رسالته بقوله : « يجب أن تغير خططك وتعدل عن هذه المكابرة التي إن عادت عليك بشيء ، فأنا تعود بخراب دولتك وفقدان ثروتك » ، غير أن الخليفة مع ما كانت عليه الخلافة من وهن وضعف ، ومع افتقاره إلى جيش يناضل به الأعداء وحاجته إلى المستشارين الأصفياء ، وبرغم انتشار الفوضى في كل مكان أرسل إلى ملك التتر جواباً يدل على التشامخ والكبرياء بدلاً من أن يطأطي هامته أمام تلك العاصفة الهوجاء . ومما زاد الطين بله أن الرعاة أهانوا الوفد عندما ما قدم على الخليفة ، فاشتد بذلك سخط الزعيم الوثني وزحف على قاعدة الملك العباسي بجيوش جرارة لا قبل للعالم الإسلامي بها ؛ وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة قبل وصولهم إلى بغداد ، بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم وإلحاق الهزيمة بهم في آخر الأمر . ولما وصل الغول إلى بغداد حاصروها أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمحطونها بوابل من الحجارة والغاز المشتعل حتى أحدثوا في أسوارها فجوة كبيرة ، وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاء الذين سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فساء بذلك موقف الخليفة الذي أبدى في الحال استعداداه إلى الإذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه في الخروج إلى معسكره وبصحبته أخوه وولده وحاشيته المؤلفة من ثلاثة آلاف جلمهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاء لم يسمح لأحد بالثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط ، وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا ودياً برغم ما كان يضرهم من الخيانة والقدرة ؛ ولما نجح في تهدئة روع الخليفة

٥٨٩-٥٦٦

تسليم المستعصم
٤ صفر ٥٦٦

وأدخل الطمانينة على قلبه ، أمره أن يوغر إلى الأهالي المسلحين بإلقاء السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصائهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدفعوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعا .

وفي صباح اليوم التالى أصدر هولاكو أمره المشؤم بنهب المدينة وذبح أهلها وإنا نرى أنا نحتاج فى وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كبيان « غيبون » المؤرخ المشهور لى نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ؛ فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبلاء اللواتى لم يعتدن السير فى ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع كما أنزلواهن أروع ضروب الإهانات وأذلها . أما تلك الكنوز الأدبية والفنية ومخلفات المدنية الفارسية التى جمعتها أيد حريصة نشطة بإشراف الخلفاء فقد دمرت تدميراً فى خلال بضع ساعات ؛ وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة أيام حتى اصطبغ ماء دجلة لعدة أميال بصبغة الدم القانية وظلت ريح التخريب والذبح وانتهاك حرمة الإنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيعة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار أو بالمعاول من أجل قبابها الذهبية ، وأعملت السيوف فى رقاب المرضى فى المستشفيات وطلاب العلم والأساتذة فى المدارس والكليات ؛ ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائج قرائح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتلتهما ألسن النار أو تبتلعها مياه دجلة ؛ وهكذا فقدت الإنسانية كنوز خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً .

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام قبض هولاكو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضرباً

نهب بغداد

— ١١٩٣ —

١٢٦٨ م
المذبحة العامة

وفاة المستعصم
٢٠ محرم ٦٥١ هـ

— ١ — ٢٧
١٢٥٨ م

مبرحا حتى فارقوا الحياة ؛ ولم ينج من هذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملى الذكر . وهكذا أمست بغداد موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربى خرابا يبابا ؛ بعد أن كان عدد سكانها قبل هذه الطامة الكبرى زهاء المليونين . ويقول ابن خلدون : « إن ١٠٠٠٠٠ ١٦٠٠ هـ - كوا فى تلك المذبحة فى خلال ستة أسابيع » . وبتدمير بغداد أُرْخى الظلام الدامس سدوله على غربى آسيا . ويروى المؤلفون العرب والفرس قصة هذا الخراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض ، فيقصون علينا تلك الأحوال التى أنزلها هؤلاء المتوحشون الوثنيون بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث عشر ، ولايستطيع أن يتمالك الإنسان غير المتمصب المكابر عن أن يذرف الدمع سخيا على تلك الأرواح وتلك الكنوز العلمية التى ذهبت ضحية التوحش والقسوة .

ويقول ابن الأثير : « إن غارة المغول هى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى ، التى عفت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلاق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يداينها » . ويقول عبد اللطيف البغدادي : « إن إغارة المغول مصيبة تتضاءل دونها كل المصائب » . ويصف لنا جوينى مؤلف كتاب جاهان كوشا الذى كان فى خدمة جنكيراخان فى ذلك العهد : « إن الثورة التى اجتاحت العالم دمرت العلم ، وفكت بالعلماء ولاسيا فى خراسان التى كانت مثابة العلم ومجتمع العلماء ، ويمكننا أن نسمى هذه الفترة بفترة حط العلم وفقدان الفضيلة » .

وبعد أن أعمالوا معاول التخريب فى بغداد ، وذبحوا سكانها عبروا نهر الفرات متجهين صوب الجزيرة يطاردون أهلها بالسيف والنار ، فأفنوا جميع

سكان الرها وحران^(١) ونصيبين ، وذبحوا في حلب ٥٠٠٠٠ من أهلها ، وسبوا عشرة آلاف من نساءها وأطفالها ، وكانت حران قد قدمت طاعتها على شرط أن يبقى المغيرون على مدينتهم ، إلا أنهم اقتحموها وقضوا عليها قضاء تاماً دون أن تأخذم الشفقة حتى على الأطفال الرضع ؛ ومن ثم زحفوا كاسيل الجارف نحو الغرب يعيشون فساداً وتخريباً أينما ساروا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين وانشقاقهم ، وواصلوا زحفهم حتى أقبل عليهم في قرية « عين جالوت »^(٢) على مقربة من الناصرية السلطان بيبرس المشهور — الذي نادى بنفسه ملكاً على مصر فيما بعد — فأوقع بهم شرايقاً ، وأعمت جنوده الأسنة في رقابهم حتى باءوا يتعثرون في أذيال الهزيمة والخسران ، وظل يتعقبهم إلى ما وراء حلب ، وبذلك نظف الشام والجزيرة من ظلمهم . وكان ابن أيبك قد عزله أحد قواده المسمى « سيف الدين قوتوز » ، الذي نادى بنفسه ملكاً ، غير أنه خر صريعاً في موقعة عين جالوت ، وعندئذ اعتلى بيبرس العرش ، ولقب « بالملك الظاهر » . وظل العالم السنى طوال سنتين كاملتين يشعر بمحاجته القصوى إلى زعيم ديني ، تلك الحاجة التي عبر عنها السيوطي بعبارات مؤثرة ، وقد أدرك بيبرس ضرورة إحياء الخلافة ، فاستدعى إلى القاهرة أحمد « أبا القاسم » العباسي الذي كان قد نجا من مذبحه المغول .

— ١١٩٣
م ١٢٦٨

١٥ رمضان
٨٦٥٨
م ١٢٦٠

٢٥ رمضان
— ٨٦٥٨
م ١٢٦٠

تشرين الأول
م ١٢٦٠

إحياء الخلافة

وعند وصول الأمير الفتى إلى ضواحي القاهرة استقبله السلطان والقضاة وموظفو الدولة بالترحاب والتعظيم ، وبعد أن أجريت المراسيم الرسمية بإثبات نسه أمام قاضى القضاة ، بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ؛ وكان أول من بايعه من الناس السلطان بيبرس ، ثم قاضى القضاة تاج الدين ثم كبار العلماء ،

(١) هي قصبة ديار مصر بين الرها والركة ، ومنها ابن تيمية إمام عصره في العلوم الإسلامية التوفى سنة ٨٢٢ هـ . (المغرب)
(٢) لا ينسئ العالم الإسلامى لمصر ذلك اليوم الأغر المحجل الذى رفعت فيه نير هؤلاء التوحشين عن أعناق المسلمين . (المغرب)

فالأشراف حسب درجاتهم . وأجريت تلك الحفلة في ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ ١٢ رجب
٥٦٥٩
١٢ آيار سنة ١٢٦١م) في حفل حاشد ونقش اسم الخليفة الجديد على العملة ،
ودعى له في الخطبة ، وسار في اليوم التالي بالموكب المعتاد يوم الجمعة (١٧ رجب)
إلى الجامع لابسا البردة ثم ألقى الخطبة التقليدية . وبعد أن تمت له المبايعة
الرسمية بالخلافة ، قلد بيبرس منصب السلطان ، وأعطاه العقد والخلمة اللازمتين .
وهكذا ازدهرت الخلافة العباسية في القاهرة برعاية ذلك السلطان المجاهد
وظلت منذ ذلك الحين منصباً دينياً محضاً حتى دخول السلطان سليم الفاتح العثماني
المشهور ، فتنازل له آخر الخلفاء عن منصب الخلافة ، وقد اتخذ ملوك آل عثمان
منذ ذلك العهد سمة الخلافة ، واعترف لهم العالم الإسلامي السني بمنصبهم الشرعي .